كتاب «لغات القرآن» «لأبى عبيد» ليس لأبى عبيد

د/ رمضان عبدالتواب

فى سنة ١٣١٠هـ، نشر كتاب: «التيسير فى التفسير» أو « التيسير الكافل بحل المشاكل من ألفاظ القرآن»، للإمام عبدالعزيز ابن أحمد الشهير بالديرينى (المتوفى سنة ٦٩٤هـ)، ونشر بهامشه (ص١٣٩ - ١٦٣) رسالة فيما ورد فى القرآن من لغات القبائل» (انظر كذلك: معجم المطبوعات لسركيس ١/١٢١)، وقال عنها الناشر: «هذه رسالة جليلة لبعض الأفاضل، تتضمن ما ورد فى القرآن الكريم من لغات القبائل، وأظنها للإمام أبى القاسم بن سلام، حسبما نقل عنه صاحب الإتقان». وهو يقصد نشرة كتاب: «الإتقان فى علوم القرآن، للسيوطى»، التى طبعت بالمطبعة الكاستلية سنة ١٢٧٩هـ، بتصحيح الشيخ نصر الهورينى.

وقد جاء فى أول كتاب «الإتقان» المذكور فى تعداد مصادر مؤلفه، عبارة: «اللغات التى نزل بها القرآن»، لأبى القاسم محمد بن عبدالله»، فنبه الشيخ نصر الهورينى على ما ظنه خطأ هنا، وزعم أن الكتاب «للقاسم بن سلام»، وتابعه على هذا المرحوم محمد أبو الفضل إبراهيم، فى نشرته للإتقان بالقاهرة سنة ١٩٦٧م، فقال (هامش ١/١٩): «فى الأصول: لأبى القاسم محمد بن عبدالله وهو خطأ نبه عليه مصحح ط (يقصد: نشرة الشيخ نصر الهورينى)».

غير أن صاحب معجم المطبوعات، كان معتدلا حين قال عن هذه الرسالة: «يظن أنها لأبى عبيد بن سلام. كما حاول بروكلمان (٢/١٥٩) أن يرجع هذه الرسالة إلى كتاب: «غريب القرآن» المفقود لأبى عبيد. فقال: «ويبدو أن القائمة المنسوبة إلى أبى عبيد فى لغات القبائل، مأخوذة من كتابه المفقود فى غريب القرآن، وقد طبعت على هامش التيسير للديرينى، المطبوع فى القاهرة سنة ١٣١٠هـ» (تاريخ الأدب العربى ٢/١٥٩).

وتبدأ هذه الرسالة بالإسناد التالى: «بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله حق حمده، وصلواته وسلامه على سيدنا محمد وآله وحده، أخبرنا الشيخ الفقيه الحافظ النبيه شرف الدين أبو الحسن على بن الفضل بن على المقدسى (توفى ٦١١هـ. انظر العبر للذهبى ٥/٣٨) رحمه الله إجازة، قال: أخبرنا الشيخان: الحافظ أبو طاهر

أحمد بن محمد السِّلَفِي الإصبهانى (توفى ٥٧٦هـ - انظر غاية النهاية ١٠٢/١) وشهاب الدين أبو عبدالله محمد بن يوسف القونوى، عن أبى العباس أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن الحطاب، عن أبى محمد إسماعيل بن عمرو بن إسماعيل المقرىء (توفى ٤٢٩هـ انظر غاية النهاية ١٦٧/١)، عن أبى أحمد عبدالله بن حسين بن حَسْنُون المقرىء (توفى ٣٨٦هـ. انظر غاية النهاية ٤١٥/١). عن أبى العباس أحمد بن عبيد، عن الحسن بن محمد، عن أحمد بن محمد بن سعيد بن أبان القرشى، عن أبى جعفر محمد بن أيوب، عن عبدالملك بن جريج (توفى ١٥٠هـ. انظر العبر ٢١٣/١)، عن عطاء (توفى ١٣٦هـ. انظر العبر ١٨٤/١)، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - فى قول الله عز وجل: ﴿بلسان عربى مبين﴾ الشعراء: آية ١٩٥، «قال: بلسان قريش..» الخ.

وفى عام ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م، نشر صلاح الدين المنجد كتاب: «اللغات فى القرآن» بمطبعة الرسالة بالقاهرة، وكتب فى صفحة العنوان: «أخبر به إسماعيل بن عمرو المقرىء، عن عبدالله بن الحسين ابن حسنون المقرىء، بإسناده إلى ابن عباس».

وهذا الكتاب، الذى نشره صلاح الدين المنجد، ليس إلا نسخة أخرى من الكتاب المنشور على هامش كتاب: «التيسير» للديرينى. ولا يخرج الخلاف بينهما، من ناحية النص، عن الخلاف الذى يوجد عادة بين مخطوطات كتاب ما، من زيادة كلمة أو عبارة، أو نقص أخرى، وتحريف أو تصحيف فى هذه الكلمة أو تلك.

أما من ناحية الإسناد، فإنه يبدأ بالجزء الأخير الموجود بالنص المنشور على هامش «التيسير» للديرينى، وهو كما يلى: «أخبرنا الشيخ أبو محمد إسماعيل بن عمرو بن إسماعيل بن راشد الحداد المقرىء، قراءة عليه، قال: حدثنى أبو أحمد عبدالله بن الحسين بن حسنون المقرىء، قال: حدثنا أبو العباس أحمد بن عبيد، قال: حدثنا الحسين بن محمد، قال: حدثنا أحمد بن محمد ابن سعيد بن أبان القرشى، قال: حدثنا أبو جعفر محمد بن أيوب المقرىء، عن عبدالملك بن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس، فى قوله عزوجل: ﴿بلسان عربى مبين﴾ قال: بلسان قريش.. » الخ

ولكل هذا نرى أن نسبة الكتاب لأبى عبيد القاسم بن سلام، خطأ لا شك فيه، ويمكن تلخيص الأسباب فيما يلى:

١ - لم يرد اسم أبى عبيد فى أية نسخة من هاتين النسختين: نسخة هامش الديرينى، والنسخة التى نشرها صلاح الدين المنجد.

٢ - ما ورد فى مقدمة الإتقان (١٩/١) من نشرة محمد أبو الفضل إبراهيم، من قوله: «اللغات التى نزل بها القرآن، لقاسم بن سلام»، خطأ تابع فيه المحقق الشيخ نصرًا الهورينى، وقال فى الهامش: «فى الأصول: لأبى القاسم محمد بن عبدالله، وهو خطأ نبه عليه مصحح ط».

٣ - ورد اسم «أبى القاسم» فى كتاب «الإتقان» للسيوطى، فى النوعين: السابع والثلاثين (فيما وقع فى القرآن بغير لغة الحجاز) والثامن والثلاثين (فيما وقع فى القرآن بغير لغة العرب) أربع عشرة مرة. قال السيوطى فى أولها: «وقال أبو القاسم فى الكتاب الذى ألفه فى هذا النوع فى القرآن» (٩١/٢).

وقال محقق الكتاب الأستاذ محمد أبو الفضل

إبراهيم، فى استدراكه على هذا الموضع (٣٠٨/٤): «هو أبو القاسم اللالكائى. واسم كتابه: لغات القرآن». أما أن اسم الكتاب «لغات القرآن» فقد ذكره السيوطى فى «الإتقان» كذلك مرتين (١٠٩/٢، ١١٠/٢)، وفى كتابه: «المهذب فيما وقع فى القرآن من المعرب» ثلاث عشرة مرة (٣٢؛ ٣٨؛ ٤٦؛ ٤٩؛ ٥١؛ ٥٢؛ ٧١؛ ٧٤؛ ٨٠؛ ٩٠؛ ٩١؛ ٩٥؛ ٩٦)، غير أن السيوطى لم يزد فى كل مرة من هذه المرات عن قوله: «قال أبو القاسم فى لغات القرآن»!

٤ ـ يبدو أن الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم، قد قاس هذه المواضع التى ذكر فيها «أبو القاسم» فقط، على الموضع الذى ذكر فيه: «أبو القاسم اللالكائى» (١٣/٣) فى نص من كتابه: «السنن».

وكان يمكن أن يكون هذا القياس مؤكدا، لو أننا عثرنا فى مصادر ترجمة: «أبى القاسم اللالكائى» على مؤلَّف له بعنوان: «لغات القرآن». وهذه المصادر هى: تاريخ بغداد ٧٠/١٤ ـ ٧١، والأنساب للسمعانى ٥٩٥أ، والمنتظم لابن الجوزى ٣٤/٨، وتذكرة الحفاظ للذهبى ١٠٨٣ ـ ١٠٨٥، والبداية والنهاية ٢٤/٢، وشذرات الذهب ٢١١/٣، وهدية العارفين ٥٠٤/٢.

هذا إلى أن أبا القاسم اللالكائى (صانع اللوالك = النعال) قد رحل من طبرستان إلى بغداد، وهناك تلقى العلم على أبى حامد الإسفراييني، والوزير عيسى بن على بن عيسى وغيره. كما سمع عليه الخطيب البغدادى وغيره. وتوفى بالدينور سنة ٤١٨هـ ـ ١٠٢٧م. وقد ذكر له فؤاد سزكين (تاريخ التراث العربى ١٥١/١، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٣٠٥/٣ ـ ٣٠٦) ما تبقى من مؤلفاته، وهى خمسة كتب، ليس من بينها «لغات القرآن».

٥ ـ تسير الرسالة فى هامش الديرينى، ونشرة صلاح الدين المنجد، على ترتيب سور القرآن الكريم؛ فمثلا فى سورة البقرة الآية ١٣: قال الله تعالى: ﴿أنؤمن كما آمن السفهاء﴾، السفيه: الجاهل بلغة كنانة. وقوله: رغدا ـ يعنى: الخصب بلغة طيئ.. الخ.

أما السيوطى فى الإتقان، فقد جمع تحت كل لغة، ما ورد منها فى كتاب «لغات القرآن»، لأبى القاسم؛ فمثلا يبدأ الاقتباس من الكتاب على النحو التالى: «وقال أبو القاسم فى الكتاب الذى ألفه فى هذا النوع فى القرآن. (بلغة كنانة): والسفهاء: الجهال. خاسئين: صاغرين. شطره: تلقاءه..» الخ.

٦ ـ هناك مخطوطة فى المكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية برقم ١٤٠ حديث تيمور، فى مجموع كتب سنة ١٣٠٩هـ (٨٦ ـ ١٠٦)، ويتشابه نصها وإسنادها مع المطبوعة على هامش «التيسير» للديرينى، وهى مجهولة المؤلف وعنوانها: «رسالة فى لغات القرآن الكريم»، وليست منسوبة لأبى حيان الأندلسى (المتوفى سنة ٧٤٥هـ) كما توهم الدكتور أحمد علم الدين الجندى (فى كتابه: اللهجات العربية فى التراث ١٣٩/١) حين خلط هذه المخطوطة غير المنسوبة، خلطا فاحشا، بمخطوطة أخرى فى المكتبة التيمورية برقم ٧٤ لغة تيمور، وهى بالفعل لأبى حيان الأندلسى. وقد نشرها الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثى، بعنوان: «تحفة الأريب بما فى القرآن من الغريب» فى بغداد سنة ١٩٧٧م.

وفى سنة ١٩٨٤م، أخرج الأستاذ الدكتور

عبدالحميد السيد طلب، هذا الكتاب مرة أخرى، تحت عنوان: «لغات القبائل الواردة فى القرآن الكريم». وجعله منسوبا لأبى عبيد القاسم بن سلام، رواية عن الصحابى الجليل ابن عباس رضي الله عنه، ويقع متضخما بلا مبرر فى ٤٣٦ صفحة.

وذكر فى مقدمة تحقيقه للكتاب، أنه كان يدرس فى آداب القاهرة سنة ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤م، لنيل درجة الدكتوراه فى موضوع بعنوان: «اللهجات العربية القديمة فى القرآن الكريم» تحت إشراف الدكتور فؤاد حسنين على.

وعندما ترك المشرف عمله فى الكلية، لظروف خاصة به، كان لابد أن يختار الطالب مشرفا آخر على رسالته، لكن الأساتذة جميعا أحجموا عن قبول الإشراف على الرسالة؛ لما يتوهم فى موضوعها من مساس بقدسية القرآن فى نظرهم. فاضطر إلى ترك هذا الموضوع المتصل بالقرآن الكريم، واختار موضوعا آخر فى اللهجات العربية على وجه العموم.

وقد عثر الدكتور طلب على هذه الرسالة: (لغات القبائل فى القرآن) عن طريق المصادفة المحضة. وقد نسبها فى مقدمته زورا وبهتانا إلى أبى عبيد القاسم بن سلام. وذكر أن هذا الموضوع استهواه واستحوذ على تفكيره. وأشار المحقق إلى النسخ التى عثر عليها للكتاب، أو ما يشبهه، وهى:

١ ـ كتاب لغات القرآن: مخطوط مروى عن ابن عباس رضي الله عنه، لمحمد بن على بن المظفر المعروف بالوزان (المتوفى سنة ٨٧٥هـ): مخطوطة تشستربتى رقم ٤٢٦٣ ومصورة عنها فى الكويت.

٢ ـ كتاب اللغات فى القرآن: مخطوط برواية ابن حسنون المقرئ (المتوفى سنة ٣٨٦هـ) عن ابن عباس: فى الظاهرية ٢٧٣ حديث.

٣ ـ تحقيق رواية ابن حسنون، لصلاح الدين المنجد.

وقد تحدث الدكتور طلب عن هذه المخطوطات والمطبوعات، وحاول أن يجد مبررا لنشرته الجديدة، بسبب الخلافات فى المنهج بين هذه المخطوطات. وقد انفرد الدكتور طلب بنسبة الكتاب إلى أبى عبيد القاسم بن سلام، ولم يذكر شيئا يبرر به فعلته هذه.

ومن أهم ما يؤخذ على المحقق، مترتبا على ذلك، أنه ترجم لأبى عبيد، وأخطأ خطأ فاحشا فى كثير من القضايا التى تعرض لها، فعلى سبيل المثال: جعل من أبى عبيد خزاعيا، مع أنه كان عبدا روميا. وقوله: «وفاسخ كريه» والصواب: «فَسَخَ كَرِيَهُ». وقوله: لولا ذلك لأقحم الناس فى الخطأ». والصواب: «لاقتحم الناس». وقوله: «ثقة وروعا». والصواب: «وورعا». وقوله: «فى المصنف كذا وكذا حرف». والصواب: «كذا وكذا حرفا» (ابن عقيل ٥٤٤). وقوله: «ما رواه أبو عمرو بن الطوسى» . والصواب: «أبو الحسن بن الطوسى».

ومن أخطائه الشنيعة: تعليقه على «الجهمية» (فى ترجمة أبى عبيد ١٩) بقوله: «الجهم والجهيم من الوجوه: الغليظ المجتمع فى سماجة (ورجع فى ذلك إلى اللسان / جهم). والصواب الذى لم يفطن إليه المحقق أن (الجهمية) طائفة من الجبرية، تنسب إلى جهم بن صفوان (انظر: الملل والنحل للشهرستانى ٨٦/١) تحقيق عبدالعزيز الوكيل بالقاهرة ١٩٦٨م.

ومن أخطائه الفاضحة كذلك: اعتداده بتلك الرواية المحرفة عن السيوطى فى البغية، وهى:

«وكان أبو عبيد مع هذا ثقة ورعا **لا بأس به، ولا نعلمه** سمع من أبى زيد شيئا». والصواب كما فى معجم الأدباء ٢٥٥/١٦ ومراتب النحويين ٩٣: «وكان أبو عبيد مع هذا ثقة ورعا، **لا بأس به ولا بعلمه. سمع من أبى زيد** شيئا».

ونلخص ملاحظاتنا على عمل الدكتور طلب، فيما يلى:

١ ـ يذكر الدكتور طلب أن أبا عبيد القاسم بن سلام، ألف نيفا وعشرين كتابا. وهذا قصور فى الاستقراء والإحصاء، فالحقيقة أن أبا عبيد ألف خمسة وثلاثين كتابا (انظر تحقيقنا لكتابه: الغريب المصنف).

٢ ـ سار الدكتور طلب وراء ابن درستويه، الذى يحقد على أبى عبيد، فيقول (تاريخ بغداد ٤٠٤/١٢ ـ ٤٠٥): «وقد سبق إلى جميع مصنفاته». ويمثل لذلك بالغريب المصنف، والأمثال، وغريب الحديث، ومعانى القرآن»، ومع ما فى هذه الكتب من الجديد الممتع. ومع أن الرواة عنه كانوا مشهورين ثقات، ذوى ذكر ونبل، ولم يشُكَّ واحدٌ منهم فى أصالة كتب أبى عبيد ـ فإننا نرى الدكتور طلب يثق فى هذه الدعاوى السيئة، ويعممها على كل كتبه؛ فيقول (ص٢٢): «وكانت لابن سلام طريقة فريدة فى زمنه، اختص بها فى مصنفاته، فقد يعتمد على كتاب ما من الكتب التى فتن بها أو بموضوعها، وشغف بمحتواها، فيبوب له ويعلق عليه بما لديه من علوم ومعارف، أو بما كتبه غيره فى هذا المضمار، وكان يفعل ذلك بكل أمانة وثقة، فلم يَرْمِهِ أحد بسرقة، أو استعداء على فكر مؤلف أو جهد مصنف».

٣ ـ مع أن الدكتور طلب لم يستخدم فى تحقيقه مخطوطة واحدة للكتاب؛ فهو يقول تحت عنوان: (بين يدى التحقيق): «أولا: مقابلة ما توفر لدىّ من مخطوطات ومطبوعات»، ثم يتحدث عن كتاب الإتقان للسيوطى، ورواية ابن حسنون التى نشرها صلاح الدين المنجد، وهامش الجلالين.

٤ ـ ومن الغريب فى الموضوع أن الدكتور طلب لم يوثق نسبة الكتاب إلى أبى عبيد، ومع ذلك يذكر كيف حققه؟!

٥ ـ ومن الغريب كذلك، أنه يذكر فى هوامشه الآيات القرآنية بتمامها، معللا ذلك بعلة غريبة؛ فيقول: «حتى يستطيع القارئ أو الباحث الاستقلال بكتاب، والاستغناء به عن أن يرجع إلى المصحف، الذى ربما لا يتيسر له»!.

٦ ـ يقول الدكتور طلب عن الكتاب الذى ينشره: رواية ابن سلام (١٩/٢٨)؛ (٦/٢٩)؛ (٨/٢٩).

٧ ـ للأسف الشديد، يحسّ القارئ بأن مقدمة الدكتور طلب، عبارة عن جهد ضائع، فى كتاب ليس لابن سلام فيه كلمة. ورحم الله المحققين من الدخلاء، الذين لا يدرون عن المنهج الصحيح للتحقيق شيئا.

٨ ـ فى تعليقات الدكتور طلب فى هوامشه، تزيّد لا حدّ له، يَعُبّ فيه من المعاجم عَبّاً بلاضرورة مُلحّة؛ ففى قول صاحب الكتاب (ص٤٦): «الصاعقة: الموتة بلغة عُمَان»، يقول الدكتور طلب: «صَعِقَ الإنسان صَعْقًا وصَعَقاً، فهو صَعِقٌ: غشى عليه وذهب عقله من صوت يسمعه. وصَعِق صَعَقا وصَعْقا وصُعَقَة وتَصْعَاقاً، فهو صَعُق: مات. والصاعقة: النار التى يرسلها الله مع الرَّعْد الشديد» (اللسان / صعق). والمطلوب فى هذا النص، هو الجملة الأخيرة منه لا غير!.

٩ ـ من الأغلاط اللغوية التى وقع فيها الدكتور طلب: دخول (قد) على (لا) فى قوله: «الذى قد لا يتيسر له (٢٧). ومنها كذلك دخول (بل) على الواو فى قوله: «بل وبإيراد آية قبلها (٢٧)».

وآخر نشرات كتاب: «لغات القرآن»، هى من عمل توفيق محمد شاهين، فى مجلة: «اللسان العربى» بالرباط (مكتب تنسيق التعريب) العدد ٢٧ سنة ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م (ص١٣٩ ـ ١٥٠) بعنوان: «مخطوطة كتاب اللغات فى القرآن»، رواية ابن حسنون المقرئ المصرى، بإسناده إلى ابن عباس.

ويتحدث الدكتور شاهين فى البداية عن أطوار اللغة العربية، وموطن اللهجات العربية واختلافها فى بعض الألفاظ، مثل: بُرْمة، وعلّية، والإغريض، عند أهل مكة، للقِدْر، والغُرفة، والطَّلْع لأهل البصرة. كما يذكر الدكتور طلب أن ابن عباس عرف معنى (فَطَر) بمعنى: بدأ، من خصومة أعرابيين أمامه، و(افتح) بمعنى: احكم واقض، وسؤال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن (الأبّ) و(التخوّف).

والشيخ شاهين لا يعرف أن الكتاب طبع من قبل أربع مرات، فقال: «وهذا الكتاب مخطوط فى معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية».

وقد غيّر الشيخ شاهين بعض كلمات الكتاب، حسبما يمليه عليه الهوى والغرض؛ فبعد أن استخدم كلمة (لغة) للقبيلة، مرات تعد على الأصابع. نجد أن هذا الاستخدام تحوّل بعد ذلك إلى كلمة (لهجة).

كما أدخل الدكتور شاهين إلى الكتاب ما ليس منه؛ كقوله (١٤٤): «وفى الإتقان والبرهان».

وكذلك فى قوله (١٤٦): «وفى الإتقان للسيوطى» ثلاث مرات، وفى (١٤٧) ذكر الإتقان فى النص أربع مرات. وفى (١٤٩) ذكر الإتقان ثلاث مرات.

وفى الكتاب كثير من الأغلاط اللغوية التى وقع فيها الشيخ شاهين كما فى قوله: «وقد وصلتنا العربية» (١٣٩). والصواب: «وصلت إلينا». وكذلك قوله: «سَفَهَ» (١٤٤). والصواب: «سَفِه» بكسر الفاء.

وكذلك أيضا: «بلغة حسان» (١٤٥). والصواب: «غسان». وكذلك: «بالسروانية» (١٤٦) والصواب: «بالسريانية».

والآن.. بعد أن انتهينا من نقد هذه النشرات كلها للكتاب؛ نقول:

١ ـ مما يدل على أن مؤلف «لغات القرآن»، المسمى بأبى القاسم، شخص يختلف تماما عن أبى عبيد، ما ذكر فى (المهذب) للسيوطى، فى كلمة (ربانيون): أبو سكين ٤٨ ـ ٤٩= الراجى ٩٠ ـ ٩١.

٢ ـ فى فهارس الراجى (٢٢٣) يقول المحقق: «لغات قبائل العرب = ولغات القبائل.. المنسوب لأبى القاسم بن سلام، ـ وهو كتاب أحققه الآن ـ ولقد بينت فى مقدمته سر اختلاف اسمه، وأعطيت حججا على أن صاحبه ليس هو ابن سلام الجمحى، كما يظن الكثير. وأما أبو القاسم ابن سلام هذا، فرجل مغمور.

٣ ـ فى الإتقان للسيوطى (نشرة مصطفى الحلبى ١٩٥١م) ١/٧: «اللغات التى نزل بها القرآن، لأبى القاسم محمد بن عبدالله».

٤ ـ رواية محمد بن على بن المظفر المعروف بالوزّان (المتوفى سنة ٨٧٥هـ) للكتاب: نسخة فى تسع ورقات مؤرخة فى الخامس من ذى الحجة سنة ٨٧٥هـ، بخط محمد بن عبدالرحمن الصفدى: نسخة مخطوطة بمكتبة تشستربتى (رقم ٤٢٦٣).